الحمدُ للهِ خالقِ الأفلاكِ ومُديرها ومُزينها بالشهب الثاقبةِ ومُنيرها ، وأشهدُ ألا إله إلا الله وحدهُ لا شريكَ لهُ المتفضِّـــلُ المنعمُ المبتدئُ بسوابغِ المننِ قليلها وكثيرِها ، وأشهدُ أنَّ رحمتهُ للعالمينَ محمداً عبدُهُ ورسولهُ المبعوثُ بأدلةِ التوحيدِ وتحريرهاَ ليزيلَ بها كلَّ شُبه الملحدةِ وتزويرها ، والمُـــهدَى إلى البريةِ منجاةً من صغير الموبقاتِ وكبيرها ، صلى الله تعالى عليهِ وعلى آل بيتهِ وصحابتهِ والتابعينَ الذينَ أقاموا شرعةَ الدينِ بجمعها وتحبيرها وأبانوا حكمة اللهِ في نشرها وتيسيرها صلاةً دائمةً باقيةً تلوحُ كالأنجم في ديجورها.

أما بعدُ عباد الله ، فأوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى فإن تقوى الله تبارك وتعالى موئل لمن وأل إليها حصين ومعقل لمن اقتفاها أمين ومعول لمن عول عليها مكين ووصية الله لعباده المؤمنين (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) ، عباد الله: كثيرٌ من يسمعُ آياتِ الله تعالى تتلى عليهِ ، يصغي لأئمة الصلواتِ ، وينصتُ عند سماعهِ في المحافل والمجامع والقنواتِ والإذاعاتِ ، لكنَّ بعضاً من أهل هذا السَّـــماعِ لا يجدونَ أثراً للقرآنِ عند سماعهِ ، فلا يقشعرُّ الجلدُ ، ولا تدمعُ العينُ ، ولا تنشطُ الهمَّـــةُ إلى القربِ من اللهِ ، ثمَّ يتساءلونَ في أنفسهم ، وعمَّ يتساءلونِ عن المانعِ العظيم الذي هم فيه مختلفونَ ، وقد بيَّـــنه الله تعالى في كتابهِ أحسَنَ تبيينٍ ، ولكنَّ أكثر النَّـــاس لا يعلمونَ ، ففي كتاب الله تعالى حديثٌ عن الوسائلِ التي يتحصَّلُ معها فهمُ القرآنِ والانتفاعُ بهِ ، ومن أهم هذه الوسائلِ حاسَّـــةُ السمعِ ، فهو أحدُ ثلاثِ وسائل لا تُدركُ العلومُ إلا بواسطتها (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) فإذا تعطَّـــلَ السَّمعُ وهو أحد هذه المنافذِ الثلاثِ كانَ ذلكَ مانعَ التأثرِ باستماعِ القرآنِ وإن كانَ تاليهِ رسول الله صلى الله عليهِ وسلمَ لأنَّ السَّمَاعَ النَّافِعَ لِلْمُسْتَمِعِ هُوَ مَا عَقَلَ بِهِ مَا يَسْمَعُهُ وَفَقِهَهُ وَعَمِلَ بِمُقْتَضَاهُ وإلا كانَ والأصمَّ سواءً ، بل الأصمُّ خيرٌ منهُ لأنَّـــهُ مأجورٌ على البلاءِ ومعذورٌ عند الجزاء ، ألا ترونَ الله تعالى قال مخاطباً لهُ (أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ) والمعنيونَ بهذا الاستفهامُ ليسوا الصمَّ الذينَ ابتلاهمُ اللهُ بسلب الأسماعِ ولكنَّـــهم الفجرةُ الذينَ أصبحت ذنوبهم وجرائرهم ومعاصيهم ومظالمهم حجاباً حاجزاً يمنعُ الآذانَ من تسريب الحكمة والقرآنِ فصاروا لا يستطيعونَ سمعاً ينفعهم فيتأثرونَ بالقرآنِ ، ومن تأمَّلَ القرآنَ الكريمَ وجدَ فيه تصريحاً من الله تعالى بأنَّ أولئكَ الصمَّ الذين حالتْ سيئاتهم بينَهم وبين القرآنِ لا تؤثرُ فيهم آياتهُ ولا تخوفهم قوارعهُ قال الله تعالى (قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ) قال المفسرونَ إنَّ معنى الآيةِ أنَّ من أعمى الله بصيرتهُ وختمَ على سمعهِ بسبب إعراضهِ عن الصالحاتِ الباقياتِ فقد حُـــرمَ الانتفاعَ سماعِ الآياتِ والنذرِ القرآنية لأنَّتهُ معرضٌ وأصمُّ كذلك وهذا

غايةُ ما يمتنعُ به الاستماعُ والانتفاعُ كما وصفهم الله بقوله (بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ) ، واللهُ تعالى بيَّـــن لنبيه صلى الله عليه وسلم أنَّ حظَّ التأثرِ بالسماعِ يكونُ بقدر الإيمانِ كما قال تعالى (إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ) قال ابنُ عبَّـــاس (أي لا تُسمعُ إلا من خلقته للسعادة فهم مخلصون في التوحيد) ومن أسبابِ عدمِ الانتفاعِ بسماعِ القرآنِ اشتغالُ الذِّهنِ والكلامُ أثناءَ قراءته وعدمُ الإنصـــاتِ التامِّ سماعاً للمقروءِ ،ولذا ندبَ اللهُ عبادهُ إلى الإنصاتِ حينَ قراءته فقال (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا) لأنَّ الإنصاتَ سببٌ لتحصيلِ منفعةِ القرآنِ وتأثيرهِ في النَّـــفسِ ، وقد فطنَ المشركونَ لذلكَ وأدركوهُ فتواصوا بينهم باللغو والتصفيقِ والتشويشِ على النبي صلى الله عليه وسلمَ عند قراءةِ القرآنِ إعراضاً منهم عن الذكر وحسداً من عند أنفسهم لئلاَّ تنتفعَ به قلوبُ المؤمنينَ فقال الله عنهم (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) وقد أحسنتِ الجنُّ أدبها مع كتاب الله وتواصوا بالإنصاتِ للقرآنِ طلباً للنفعِ فآتاهم الله مبتغاهم وانطلقوا دعاةً بعد هذا الإنصاتِ ،وفي ذلك يقول الله تعالى (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ) ومن موانعِ انتفاعِ السامع بالقرآنِ عبثُ الخواطر بقلبهِ وذهابها به كل مذهبٍ فيهيمُ في أفكارهِ من غير إحضار قلبهِ وجمعِ شتاته على القرآنِ المتلوِّ عليهِ ، ولذلكَ فإنَّ الله تعالى حينَ قصَّ خبرَ أممٍ غابرةٍ في سورةِ ق علَّقَ الاعتبارَ والعظةَ بمصارعهم بحضور القلبِ عند السماعِ فقال (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) قال مجاهد في تفسير هذه الجملة يعني وهو لا يحدّث نفسه، شاهد القلب ، يقول ابن القيم رحمه الله (إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه ، وألق سمعك واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه) وحضورُ القلبِ يشعُـــرُ معهُ السامعُ بعظمة القرآنِ وأنَّـــهُ كلامُ الله تعالى ومن استمعَ للقرآنِ وهو يعظِّـــمهُ ويجـــلُّهُ فلن يعدمَ أثرَ هذا التعظيم في نفسهِ أبداً بل يؤمنُ ويخشعُ وينقادُ ألا ترى الجنَّ حينَ عظَّموا القرآن قال الله عنهم (فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ) ، ومن أشدِّ موانعِ الانتفاعِ بالقرآنِ تكبُّـــرُ السَّـــامعِ لمواعظِ القرآنِ وترفُّـــعه عن أن يكونَ معنياً بها ، فتتلى عليهِ آياتُ وعيد أكلةِ الربا وهو غارقٌ فيه فيتكبَّـــرُ عن التأثرِ والخوف والانزجار ، ويكونُ عاقاً ويسمعُ وصيةَ الله بالوالدينِ فيظنُ نفسهُ أويسا القرني فلا يتحركُ ولا يتأثرُ ، يكونُ ظالماً آكلاً أموالَ اليتامى باخساً الضعفاءَ والمساكينَ حقوقهم وتقرعُ سمعه مواعظُ الله ولعنتهُ للظالمينَ ثم لا يقشعرُّ جلدهُ ولا يخافُ أليم العاقبة ، ولذا فإنَّ الله تعالى

وصفَ الصالحينَ من النصارى بأنَّـــهم لا يستكبرونَ عن العظة بالقرآنِ بل تجري مدامعهم وتنتفضُ قلوبهم خوفاً وطمعاً ورغبةً ورهبةً (وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ * فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ) فانظر كيفَ كانت عاقبة تواضعهم للهِ وكيفَ سمَّـــى الله فعلهم إحساناً يثابونَ عليه بالجنَّـــة.

*** عباد الله: إن الله تعالى فضَّلَ السمع على البصر وقدمهُ عليه ، وذلك لأنَّ فاقدَ البصر لا يتعطَّـــلُ عقلهُ ولا ينقطعُ إدراكهُ بل يفوقُ المبصرينَ ويكونُ أشعرَ وأعلمَ وأدهَـــى بخلاف الأصمِّ ، ولذلك قرنَ الله بين العقلِ والسمعِ في قوله (أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ) ، وبيَّـــنَ الله تعالى أنَّ المُعذَّبينَ في النَّـــار يندمونَ على عدم انتفاعهم بالسمع فيقولون (لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) ، ومن السنة أن يستعيذ الإنسانُ في دعائه من فقد هذه النعمة العظيمة لأنَّ ممَّا ثبتَ عن النبي صلى الله عليه وسلمَ في دعائه قولَـــهُ (وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الصَّمَمِ وَالْبَكَمِ وَالْجُنُون) وأهلُ المقابرِ كما ذهب إليه جمعٌ من أهل العلمِ يسمعونَ سلامَ المُسلِّمينَ ولكنَّـــهم لا يجيبونَ ، وفي مراقدهم موعظةٌ وذكرى للمؤمنينَ فتأمَّلْ حالَهم ، واعلم أنكَ عما قريبٍ ضجيعُهم ، فلا مُجيبَ يَردُّ القولَ عَن نَبأٍ ** ولا سَميعَ إذا نادَيتَ يَستَمِعُ ، ومن أجل ذلك السماع شرع النبي صلى الله عليه وسلم لأمته أن يسلموا على أهل القبور فيقولون: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل، ولولا ذلك لكان هذا الخطاب بمنزلة خطاب المعدوم والجماد، وقد وردت الآثار بأن الميت يعرف زيارة الحي له ويستبشر به.

وسماعُ المسلمِ للمناكرِ المُستقذَرةِ من اللهو واللغو والمعازفِ المحرَّمة والنميمةِ وأسرار النَّـــاسِ في بيوتهم كلُّ ذلكَ مما يمنعُ نفوذَ القرآنِ إلى القلبِ وانتفاعَ السامع به ، وذلكم قول الله تعالى (بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) القلب مثل الكف ، ورفع كفه فإذا أذنب انقبض ، وضم إصبعه ، فإذا أذنب ذنباً آخر انقبض ، وضم أخرى حتى ضم أصابعه كلها حتى يطبع على قلبه ، قال رحمه الله : وكانوا يرون أن ذلك هو الرين.

ألا وإنَّ من أجلِّ ما تُشنَّـــفُ به الأسماعُ وأزكى ما يُـــذاعُ ويُشـــاعُ كثرةَ صلاتكم وسلامكم على الشفيعِ المختار وسيد الأبرار محمد صلى الله عليه وسلم خصوصاً في هذا اليوم الأغرِّ قال عليه الصلاة والسلامُ في حديثه عن يوم الجمعة (فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي).